المركز الخيري
لتعليم القرآن الكريم وعلومه

منصة مبين
للتعليم عن بعد

أنا ابن من الحسنين

بقلم: منى بنت سالم باخلعة

شبكة الألوكة
www.alukah.net

كنت قبل أيام والحمد لله قد انتهيت من قراءة تفسير السعدي عليه رحمة الله، فكنت أتعجب من فتوحات الله على هذا العالم الربَّاني، لقد كان أسلوبه رحمه الله عجيبًا.. جمع بين الإيجاز وسهولة العبارة وبين التأصيل والتقعيد في تفسير الآيات سواء في المسائل الفقهية، أو الأسماء الحسنى أو ربط الآيات وإيراد بعض المناسبات أو الهدايات والفوائد الإيمانية.

ولايزال راسخًا في ذهني معنى كان رحمه الله يكرره كلما اقترنت الصلاة بالزكاة ، فقال رحمه الله: وكثيرا ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبيده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.

لاشك أن المحسن في عبادة ربه عمومًا سيفيض إحسانه وتجود نفسه بالبذل ونفع العباد، وفي هذا بيان لهذه المرتبة العظيمة التي وعد الله مستحقيها بحبه و توفيقه وحفظه، وتسديده لهم بالعلم النافع.

إنها الإحسان أعظم مراتب الدين وأعلاه، ومن يتأمل تعريف العلماء لمرتبة الإحسان وخاصة في عبادة الله يجد اتفاقهم على معاني مشتركة منها: المراقبة، الطلب، الهرب، اتقان العمل، الإخلاص والمتابعة.

ومع ذكر الإحسان فقد رأيت أن أقف مع سورة هي من أحسن القصص، قد تجلى الإحسان فيها في نظري حتى رأيت أن أجعل عنوانًا لمقالي هذا آية منها؛ قد وقعت من قلبي أي موقع:

﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ يوسف: ٣٦ .

لقد كانت الدهشة تأسرني في ارتباط قضية الإحسان عند يوسف عليه السلام، بدءًا من تفضل الله عليه وهبته له العلم والنبوة، و انتهاءً بتتويجه رداء الملك واجتماع شمله.

إنها سورة الإحسان.

ففي مطلع القصة تراءى أمام الناظر ما مر به الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف عليه السلام من ابتلاءات عظيمة أظهر فيها الصبر والرضا والتسليم لربه، منذ لحظات فراق الوالد ووحدة الجب، وحتى اكتمال فتوته وأشدَّه.. في أصعب موقف يتعرض له شاب عَزَب غريب، ومن أراد أن يعيش تفاصيل المشهد فليراجع كلام ابن القيم عليه رحمة الله في هذا.

ما أروع إحسان يوسف ومراقبته لمولاه وسرعة إجابته: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾، وما أعظم إحسانه وأدبه في حفظ حق سيده: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾.

ولما سجن وقص عليه الرجلان في السجن رؤياهما توسما فيه الإحسان قائلين إنا نراك من المحسنين.

وقد ظهر ولا ريب عظيم إحسانه إليهم في دعوتهم إلى التوحيد لتخليصهم من رق الشرك أولًا قبل الإحسان إليهم بتأويل الرؤيا.

إن المتأمل والناظر في تفاصيل حياة يوسف يتعجب من شدة الابتلاءات التي واجهها يوسف عليه السلام بإحسان عظيم وصبر ويقين وحسن ظن برب العالمين، ولكم يدهشني صفاء قلبه عليه السلام بالرغم مما ناله من ظلم العزيز وأهله، وسنوات السجن الطويلة التي مكثها فيه مظلومًا مكلومًا، وبعد حين يُطلب منه إسداء خدمة فيبتدر فيها بإحسانه المعهود فيؤول الرؤيا ويزيد بالرأي الناصح السديد.

وبعد أمة من الزمن يلتقي إخواته وهم من كانوا سبب الحيلولة بينه وبين أبيه، فيتوسمون بعد هذه السنين العجاف في هذا العزيز صفات الإحسان، فملامحه الشكلية وإن تغيرت عليهم إلا أن ملامحه الخلقية وإحسانه مازال متجليا لهم، حتى وصفوه بقولهم: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨﴾ يوسف: ٧٨، وقد بدا من إحسانه معهم في تنوع معاملاته لهم بين زيادة الكيل ورد الثمن والأدب في الألفاظ إلى الصفح عنهم والعفو.

والإحسان كما وصفه ابن القيم رحمه الله ..هو لب الإيمان وروحه وكماله، الحقيقة إن عبادة كالإحسان وصف الله فاعلها بالمحبة له في أكثر من موضع جديرة بالبحث والتنقيب عن كيفية تحقيقها؟؟

وقد ذكر لنا ﷺ القاعدة العامة لتحقيق الإحسان باستشعار المراقبة في أن تعبد الله كأنك تراه وهذه عبادة الطلب، فإن لم تكن تراه فإنه يراك وهذه عبادة الهرب والخوف، ولا شك أن العابد بالمعنى الأول أكمل من العابد بالمعنى الثاني؛ لأن العابد الأول مرتبته عُليا؛ يعبد الله كأنه يراه، فهو يقصد الله عز وجل وله شوقٌ كبيرٌ إلى ربه سبحانه وتعالى، أمَّا الثاني فإنه يعبد الله كأن الله يراه، فهو خائفٌ من ربه، فعبادته عبادة الهرب، والأول عبادة الطلب، أو كما ذكر النووي رحمه الله..

ولاتتحقق تمام المراقبة لقلب لم يعرف ربه بأسمائه وصفاته!!

تصور معي منظمة تسير بنظام وإنتاجية وكفاءة عالية.. يديرها رقيب من البشر قوي يجمع بين الشدة والرحمة فهو رحيم شفيق محسن لمن أحسن العمل، معاقب للمسيء أشد العقوبات، وهو مع هذا محسن حتى لمن يعاقبه محتسبا إصلاحه بذلك.

ولله المثل الأعلى هكذا نفسك حين تتعرف الله بأسمائه وصفاته الدائرة بين العدل والفضل الجامعة لكل حسن، وحينما تتعمق معرفته في قلبك ستكون حينها من المحسنين.. جعلني الله وإياك منهم.